

الباب الثاني الحكومة والاسلام

الباب الاول

نظام الحكم في عصر النبوة

قضاؤه (صلى الله عليه وسلم) - هل ولى (صلى الله عليه وسلم) قضاة؟ - قضاء عمر - قضاء علي -
قضاء معاوية وأبي موسى - صعوبة البحث عن نظام القضاء في عصر النبوة -
فلو العصر النبوي من محابيل الملك - أهمل عامة المؤرخين البحث في نظام
الحكم النبوي - هل كان (صلى الله عليه وسلم) ملطاً؟

(١) لا حدثنا إذ كنّا نبحت عن تاريخ القضاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ان حال القضاء في ذلك الوقت لا يخلو من غموض وإبهام يصعب معها البحث ، ولا يكاد يتيسر معها الوصول الى رأى ناضج ، يقره العلم ، وتطيب به نفس الباحث .

لا شك في ان القضاء بمعنى الحكم في المنازعات وقضاها ، كان موجوداً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما كان موجوداً عند العرب وغيرهم ، قبل أن يجيء الاسلام . وقد رفعت الى النبي صلى الله عليه وسلم خصومات فقضى فيها . وقال صلى الله عليه وسلم ، ^(١) أنكم تختصمون .

(١) البخارى في كتاب الشهادات ص ١٧٠ ج ٣

اليّ ، ولعل بعضهم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق اخيه شيئاً بقوله ، فانما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها »

وفي التاريخ الصحيح شيء من قضاءه عليه السلام فلما كان يرفع اليه ، ولكننا اذا اردنا ان نستنبط شيئاً من نظامه صلى الله عليه وسلم في القضاء نجد أن استنباط شيء من ذلك غير يسير ، بل غير ممكن ، لأن الذي نقل اليه من احاديث القضاء النبوي لا يبلغ أن يعطيك صورة بيئة لذلك القضاء ولا لما كان له من نظام ، ان كان له نظام .

(٢) لاحظنا ان حال القضاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم غامضة ومبهمة من كل جانب ، حتى لم يكن من السهل على الباحث ان يعرف هل ولي الله عليه وسلم احدا غيره القضاء أم لا . هنالك ثلاثة من الصحابة يعدّهم جمهور العلماء ممن ولي القضاء في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال بعضهم^(١) « وقد قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم القضاء لعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم » اهـ وينبغي أن يضاف اليهم أبو موسى الاشعري رضي الله عنه ، فقد كان في عمله ، على ما يظهر ، نظيراً لمعاذ بن جبل سواء بسواء

(٣) اما أن عمر رضي الله عنه تقلد القضاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فرواية غريبة من الجهة التاريخية ، ويظهر انها انما اخذت بطريق الاستنتاج^(٢) ، ففي سنن الترمذي ، أن عثمان قال لعبد الله بن عمر

(١) هو رفاة بك رافع في كتابه نهاية الایجاز في سيرة ساكن الایجاز ص ٤٢٩ فتلاعن

كتاب تخریج الدلالات السمعية (٢) نهاية الایجاز ص ٤٢٩

أذهب فاقض بين الناس . قال أو تعافيني يا أمير المؤمنين ، قال وما تكره من ذلك وقد كان ' بوك يقضى ؟ قال ان أبى كان يقضى فإن أشكل عليه شيء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل . وإنى لا أجد من أسأله الخ » .

(٤) وأما علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، فقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى اليمن ، وهو شاب ، ليقضى بينهم ... وروى أبو داود ، رحمه الله تعالى ، عن علي بن أبي طالب ، رضى الله تعالى عنه ، وقال بعثني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى اليمن قاضياً ، وأنا حديث السن ، ولا علم لى بالقضاء ، وقال ان الله سيهدى قلبك ، ويثبت لسانك ، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر ، كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء . قال فما زلت قاضياً ، وما شككت فى قضاء بعد . كذا ذكره أبو عمرو بن عبد البر فى الاستيعاب . وقال أيضاً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، « أقضاهم على بن أبى طالب » . اهـ

والذى فى البخارى " مما يتصل بهذا الموضوع ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث خالد بن الوليد الى اليمن قبل حجة الوداع ، مع جماعة من الصحابة ، وبعث علياً بعد ذلك مكاه ليقبض الخمس ، وقدم على من اليمن بسعايته الى مكة ، والنبي صلى الله عليه وسلم بها .

(١) راجع الجزء الخامس ص ١٦٣ - ١٦٤ بعث على بن أبى طالب عليه السلام وخالد ابن الوليد رضى الله عنه الى اليمن قبل حجة الوداع - صحيح البخارى
الخلافة — ٦

ونقل على بن برهان الدين الحلبي^(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث عالياً كرم الله وجهه ، في سرية الى اليمن ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، فكتب بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى كتابه خر ساجداً ، ثم جلس ، فقال السلام على همدان . وتابع أهل اليمن الى الاسلام . وهذه هي السرية الاولى . والسرية الثانية بعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ، كرم الله وجهه الى بلاد مذحج من أرض اليمن في ثلثمائة فارس ، فغزاهم . . . وجمع الغنائم . . . ثم رجع على كرم الله وجهه ، فوافى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، قدمها لحجة الوداع . الخ

(٥) « وأما معاذ^(٢) بن جبل ، فقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً الى الجند من اليمن ، يعلم الناس القرآن ، وشرائع الاسلام ، ويقضى بينهم ، وجعل له قبض الصدقات من العمال ، الذين باليمن ، وذلك عام فتح مكة ، في السنة الثامنة من الهجرة . والجند بفتح الجيم والنون معاً ، بلدة باليمن »

وقال البخاري^(٣) في هذا الموضوع بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل الى اليمن ، قال وبعث كل واحد منهما على مخالف ، واليمن مخالفان ، ثم قال ، يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا . وفي حديث آخر للبخاري ، أنه قال لمعاذ بن جبل ، انك ستأتي

(١) راجع السيرة الحلبية . ج ٣ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ (٢) نهاية الإيجاز

(٣) صحيح البخاري ج ٥ ص ١٦١ - ١٦٣

قوما من أهل الكتاب ، فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال فان هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فان هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينه وبين الله حجاب

ويقرب من هذا رواية السيد احمد زيني دحلان في السيرة النبوية (١) قال « بعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما الى اليمن قبل حجة الوداع ، في السنة العاشرة ، وقيل في التاسعة ... وقيل عام الفتح سنة ثمان ، وكل واحد منهما على مختلف ، وكان جهة معاذ العليا صوب عدن ، وكان من عمله الجند . وكانت جهة أبي موسى السفلى اه .

وأخرج (٢) أحمد و ابو داود والنسائي وغيرهم ، من حديث الحارث ابن عمرو ، بن أخى المغيرة بن شعبة ، قال حدثنا ناس من أصحاب معاذ عن معاذ ، قال لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى اليمن قال كيف تقضي اذا عرض لك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله ، قال فان لم تجد في كتاب الله ؟ قال فبسنة رسول الله ، قال فان لم تجد في سنة رسول الله ولا في

(١) المطبوعة على هامش السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨

(٢) منقول من « كتاب ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول » للشوكاني ص ١٨٨ وقال المؤلف « محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ » عن هذا الحديث . ان الكلام في استناده يطول . وقد قيل انه مما تلقى بالتبليغ

كتاب الله؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو . قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ، وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله اه .

(٦) تلك الروايات المختلفة ، التي قصصنا عليك نموذجاً منها ، تريك كيف يسوغ لنا أن نستنتج ما قلناه لك قبل ، من أنه لا تتيسر الاحاطة بشيء كثير من أحوال القضاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وها أنت ذا قد رأيت كيف اختلفت الرواية عن حادثة واحدة بعينها . فبعث على الى اليمن يرويه أحدهم انه تولية للقضا ، ويروى الآخر انه كان لقبض الخمس من الزكاة ، ومعاذ بن جبل كذلك ، ذهب الى اليمن قاضياً في رأى ، وغازيا في رأى ، ومعلما في رأى

ونقل صاحب السيرة النبوية^(١) خلافاً في أن معاذ كان والياً أو قاضياً « فقال ابن عبد البر انه كان قاضياً ، وقال الغساني إنه كان أميراً على المال . وحديث ابن ميمون فيه التصريح بأنه كان أميراً على الصلاة . وهذا يرجح أنه كان والياً » اه

(٧) وأن البحث العميق فيما كان عليه القضاء زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إطاعة التفكير في ذلك ، وحسن التفهم لما وصل الينا متصلًا بهذا الموضوع من الاحاديث والاخبار ، كل أولئك يدفعنا الى البحث بوجه عام في نظام الحكومة الاسلامية ، أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كيفية تدبير ذلك الملك الاسلامي ، إن ساع لنا بحق أن نسمى ما فتحه الله لنبيه من البلاد دولة وملكا .

(١) راجع السيرة النبوية لدحلان المطبوعة على هامش السيرة الحلية ص ٣٦٨ ج ٢

ذلك باننا وجدنا عند البحث في نظام القضاء في عصر النبوة أن غير القضاء أيضاً من أعمال الحكومات ووظائفها الأساسية لم يكن في أيام الرسالة موجراً على وجه واضح لا لبس فيه ، حتى يستطيع باحث منصف أن يذهب الى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعين في البلاد التي فتحها الله له ولاية مثلاً لإدارة شؤونها ، وتدير أحوالها وضبط الأمر فيها . وما يروى من ذلك فكلمة عبارة عن توليته أميراً على الجيش ، أو عاملاً على المال ، أو إماماً للصلاة ، أو معلماً للقرآن ، أو داعياً الى كلمة الاسلام . ولم يكن شيء من ذلك مطرداً ، وإنما كان يحصل لوقت محدود ، كما ترى فيمن كان يستعملهم صلى الله عليه وسلم على البعوث والسرايا ، أو يستخلفهم على المدينة اذا خرج للغزو

اذا نحن تجاوزنا عمل القضاء والولاية الى غيرهما من الاعمال ، التي لا يكمل معنى الدولة الا بها ، كالعاملات التي تتصل بالاموال ومصارفها (المالية) وحراسة النفس والاموال (البوليس) وغير ذلك مما لا يقوم بدونه أقل الحكومات وأعرقها في البساطة ، فمن المؤكد اننا لا نجد فيما وصل اليها من ذلك عن زمن الرسالة شيئاً واضحاً يمكننا ونحن مقتنعون ومطمئنون ، أن نقول انه كان نظام الحكومة النبوية

(٨) ومما قد يتأنس به في هذا الموضوع ، أننا لاحظنا أن عامة المؤلفين ، من رواة الاخبار يعنون في الغالب ، اذا ترجموا خليفة من الخلفاء أو ملك من الملوك ، بذكر عماله من ولاية وقواد وقضاة الخ . ويفردون له شيئاً خاصاً ، يدل على انهم عرفوا تماماً قيمة ذلك البحث من

الجهة العامة، فصرفوا من الجهد فيه والعناية به ما يناسبه، ولكنهم في تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم، إن عاجلوا ذلك البحث رأيتهم يزجون الحديث فيه مبعثراً غير متسق، ويخوضون غمار ذلك البحث على نسق لا يماثل طريقتهم في بحث بقية العصور. ما رأينا مؤرخاً شذ عن ذلك، اللهم الا ما سنقله لك بعد عن رفاة^(١) بك رافع الطهطاوى، في كتاب نهاية الایجاز في سيرة ساكن الحجاز، نقلا عن صاحب كتاب تخریج الدلالات السمعية

(٩) كلما أمعنا تفكيراً في حال القضاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي حال غير القضاء أيضاً، من اعمال الحكم، وأنواع الولاية، وجدنا ابهاماً في البحث بتزايد، وخفاء في الامر يشتد. ثم لا تزال حيرة الفكر تنقلنا من لبس الى لبس، وتردنا من بحث الى بحث، الى أن ينتهي النظر بنا الى غاية ذلك المجال المشتبه الحائر. واذا نحن إزاء عويصة أخرى هي كبرى تلك المعضلات، وهي منشأ ما لقينا من حيرة واضطراب. هي الاصل وما عداها فروع، وهي الأم وما عداها تبع تلك مشكلة إذا وفق العقل حلها فقد هانت من بعدها المشاكل، وانجلي كل لبس وابهام

أنا لنقترب بك الى هذه المشكلة ونحن نقدم رجلاً ونؤخر أخرى، أما أولاً فلان حلها عسير، ومزلق الفكر فيها كثيرة. وما لم يكن عون من الله تعالى أي عون فلا أمل في الوصول إلى وجه الضواب فيها

(١) رفاة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع، ويتصل نسبه بمحمد الباقر بن على حزين العابدين توفي سنة ١٢٩٠ هـ - من كتاب اكتفاء القنوع

وأما ثانياً فلان المغامرة في بحث هذا الموضوع قد تكون ، ثاراً لغارة يشب نارها أولئك الذين لا يعرفون الدين الا صورة جامدة ، ليس للعقل ان يحوم حولها ، ولا للرأي أن يتناولها :

ولكننا نستعين بالله تعالى ، ونرجو منه جل شأنه حسن التوفيق ، عسى أن نكشف لك ما غمض ، ونفتح عليك ما استغلق ، ونصل بك الى الحق أبلغ الوجه ، واضح الغرة ، ان شاء الله .

فاعلم أن المسألة الآن هي ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان صاحب دولة سياسية ورئيس حكومة كما كان رسول دعوة دينية وزعيم وحدة دينية أم لا ؟

الباب الثاني

الرسالة والحكم

لا مرجح في البحث عما إذا كان « صلعم » ملطاً أم لا — الرسالة متى
والملك متى وآخر — القول بأنه « صلعم » كان ملطاً أيضاً — بعضه العلماء
يشرح بالتفصيل الدقيق نظام حكومة النبي « صلعم » — بعضه ما يثبت أنه
يكونه من مظاهر الدولة زمن النبي « صلعم » — الجهاد — الأعمال المأثورة
— أمراء فيل أنه النبي « صلعم » استعملهم على البهرار — هل كان تأسيس
النبي لدولة سياسية هذا من رسالته ؟ — الرسالة والتنفيذ — ابن خلدون
يرى أنه لا ملامس شرع تبليغي وتنفيذي — اعتراض على ذلك الرأي —
القول بأنه الحكم النبوي . صرح كل دقائق الحكومة — احتمال جهلنا بنظام
الحكومة النبوية — مناقضة ذلك الوجه — احتمال أنه تكونه لبساطة الفطرية
هي نظام الحكم النبوي — بساطة هذا الدين — مناقضة ذلك الرأي :

« ١ » لا يهولنك البحث في أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان
ملكاً أم لا ، ولا تحسبن أن ذلك البحث ذو خطر في الدين قد يخشى
شره على إيمان الباحث ، فالأمر ، ان فطنت إليه ، أهون من أن يخرج
مؤمناً من حظيرة الإيمان ، بل وأهون من أن يرحزع المتقي عن
حظيرة التقوي

وانما قد يبدو لك الأمر خطيراً لأنه يتصل بمقام النبوة ، ويرتبط
بمركز الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه على ذلك لا يمس في الحقيقة

شيثاً من جوهر الدين ، ولا أركان الاسلام . وربما كان ذلك البحث جديداً في الاسلام لم يتناوله المسلمون من قبل على وجه صريح ولم يستقر للعلماء فيه رأى واضح ، وإذا فليس بدعاً في الدين ، ولا شذوذاً عن مذاهب المسلمين ، أن يذهب باحث الى ان النبي عليه السلام كان رسولا ومملوكا ، وليس بدعاً ولا شذوذاً أن يخالف في ذلك مخالف ، فذلك بحث خارج عن دائرة العقائد الدينية التي تعارف العلماء بحجتها ، واستقر لهم فيها مذهب ، وهو أدخل في باب البحث العلمى منه في باب الدين فأقدم ولا تخف ، إنك من الآمنين

(٢) أنت تعلم أن الرسالة غير الملك ، وأنه ليس بينهما شيء من التلازم بوجه من الوجود ، وأن الرسالة مقام والملك مقام آخر ، فحكم من ملك ليس نبياً ولا رسولا ، وكلم الله جل شأنه من رسل لم يكونوا ملوكا . بل ان اكثر من عرفنا من الرسل انما كانوا رسلا فحسب

ولقد كان عيسى بن مريم عليه السلام رسول الدعوة المسيحية ، وزعيم المسيحيين ، وكان مع هذا يدعو الى الازعان لقيصر ، ويؤمن بسلطانه . وهو الذى أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة ^(١) « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله »

وكان يوسف بن يعقوب عليه السلام ، عاملاً من العمال ، في دولة الريان بن الوليد ، فرعون مصر . ومن بعده كان عاملاً لـ قابوس بن مصعب ^(٢)

(١) انجيل متى من الاصحاح الثاني والعشرين آية « ٢١ »

(٢) راجع تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٨

ولا نعرف في تاريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك»

إلا قليلا

فهل كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ممن جمع الله له بين الرسالة والملك ، أم كان رسولا غير ملك ؟

(٣) لا نعرف لاحد من العلماء رأيا صريحا في ذلك البحث ولا نجد من تعرض للكلام فيه ، بحسب ما أتيج لنا . ولكننا قد نستطيع بطريق الاستنتاج أن نقول : إن المسلم العامي ينجح غالبا إلى اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ملكا رسولا ، وأنه أسس بالاسلام دولة سياسية مدنية ، كان هو ملكها وسيدها . لعل ذلك هو الرأي الذي يتلاءم مع ذوق المسلمين العام ، ومع ما يتبادر من أحوالهم في الجملة ، ولعله أيضا هو رأى جمهور العلماء من المسلمين ، فانك تراهم ، اذا عرض لهم الكلام في شيء يتصل بذلك الموضوع ، يميلون إلى اعتبار الاسلام وحدة سياسية ، ودولة أسسها النبي صلى الله عليه وسلم

وكلام ابن خلدون في مقدمته ينحو ذلك المنحى ، فقد جعل الخلافة التي هي نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، شاملة للملك والملك مندرجا تحتها الخ^(١)

(٤) وقد نقل المرحوم رفاة بك رافع عن كتاب تخريج الدلالات السمعية ما يشبه أن يكون صريحا في ذلك الرأي ، بل الواقع انه صريح ،

(١) راجع المقدمة : فصل في الخطط الدينية الخلفية ص ٢٠٦ وغيره

قال ما يخصه ^(١) « ان من لم ترسخ في المعارف قدمه ، وليس لديه من أدوات الطالب إلا يده وقلمه ، يحسب كثيرًا من الاعمال السلطانية مبتدعًا لا متبعا ، وأن العامل على خطة دنيوية ، ليس عاملا في عمالة سنية ، ويظن أن عمالته دنية . فلماذا جمعت ما علمته من تلك العمالات في كتاب يوضح نشرها ، ويبين الأمر لمن جهل أمرها ، فذكرت في كل عمالة من ولاه عليها الرسول من الصحابة ، ليعلم ذلك من يليها الآن ، فيشكر الله على أن استعمله في عمل شرعي ، كان يتولاه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلح له ، وأقامه المولى في ذلك مقامه » اهـ

ثم لخص رفاعة بك الكلام في الوظائف والعمالات البلدية ، خصوصية وعمومية ، أهلية داخلية وجهادية التي هي عبارة عن نظام السلطنة الإسلامية وما يتعلق بها من الحرف والصنائع ، والعمالات الشرعية ، على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع في ذلك بين الكلام على خدمه الخاصة به صلى الله عليه وسلم ، وما يضاف الى الامارة العظمى من الاعمال الاولى كالوزارة والحجابه وولاية البدن ^(٢) والسقاية ^(٣) والكتابة وما يضاف الى العمالات الفقهية من معلم القرآن ومعلم الكتابة ومعلم الفقه ، والمفتي وامام الصلاة والمؤذن ... ثم ذكر التراجم وكتابة الجيش والعطاء والديوان والزمام ، وبين أن للديوان أصلا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر العمالات المتعلقة بالاحكام ، كالامارة العامة على

(١) نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز ص ٣٥٠ طبع بمطبعة المعارف الملكية تحت نظارة قلم الروضة والطبوعات سنة ١٢٩١ هـ (٢) البدن واحدها بدنة وهي ناقة أو بقرة تنحر بمكة اهـ منه (٣) سقاية الحاج

النواحي ، والقضاء وما يتعلق به من اشهاد الشهود وكتابة الشروط والعقود
والموارث والنفقات ، والقسام وناظر البناء للتحديد ، وذكر المحتسب
والمناذى ، ومتولى حراسة المدينة ، والجاسوس لاهل المدينة ، والسجان
ومقيمي الحدود ، ثم ذهب يعدد الاعمال الحكومية واحداً بعد واحد ،
حتى لم يكذب يدع شيئاً ، وحتى قال رفاة بك : ان ذلك شئ لم يف به غالب
مؤلفي كتب السير بل جميعهم

(٥) لا شك في أن الحكومة النبوية كان فيها بعض ما يشبه أن
يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة والملك

(٦) أول ما يخطر بالبال مثالا من أمثلة الشؤون الملكية ، التي
ظهرت أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، مسألة الجهاد ، فقد غزا صلى الله
عليه وسلم المخالفين لدينه من قومه العرب ، وفتح بلادهم ، وغنم اموالهم ،
وسبي رجالهم ونساءهم . ولا شك في انه صلى الله عليه وسلم قد امتد بصره
الى ما وراء جزيرة العرب ، واستعد للانسياب بجيشه في اقطار الارض ،
وبدأ^(١) فعلا يصارع دولة الرومان في الغرب ، ويدعو الى الانقياد لدينه
كسرى الفرس في الشرق ، ونجاشي الحبشة ومقوقس مصر الخ

وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة الى الدين ، ولا لاجل
الناس على الايمان بالله ورسوله ، وانما يكون الجهاد لتثبيت السلطان ،
وتوسيع الملك

دعوة الدين دعوة الى الله تعالى ، وقوام تلك الدعوة لا يكون

(١) اشارة الى غزوة مؤتة وسرية أسامة بن زيد الى أبي

الا البيان، وتحريك القلوب بوسائل التأثير والاقناع فأما القوة والا كراه
فلا يناسبان دعوة يكون الغرض منها هداية القلوب ، وتطهير العقائد
وماعرفنا في تاريخ الرسل رجلا حمل الناس على الايمان بالله بحمد السيف ،
ولا غزا قومًا في سبيل الاقناع بدينه ، وذلك هو نفس المبدأ الذي يقرره
النبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يبلغ من كتاب الله

قال تعالى ^(١) « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي »
وقال: ^(٢) « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي
هي أحسن » وقال: ^(٣) « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر » ،
^(٤) « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن أتبعن ، وقل للذين أُوتُوا
الكتاب والأمين أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنا
عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » ^(٥) أفأنت تُسكِرُ الناس حتى
يكونوا مؤمنين »

تلك مبادئ صريحة في أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ،
كرسالة إخوانه من قبل ، إنما تعتمد على الاقناع والوعظ ، وما كان
لها أن تعتمد على القوة والبطش ، وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ
إلى القوة والرهبة ، فذلك لا يكون في سبيل الدعوة إلى الدين ، وإبلاغ
رسالته إلى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان في سبيل الملك ،
ولتكوين الحكومة الإسلامية . ولا تقوم حكومة إلا على السيف ،
وبحكم القهر والغلبة ، فذلك عندهم هو سر الجهاد النبوي ومعناه .

(١) سورة البقرة (٢) سورة النحل (٣) سورة الناشية (٤) سورة آل عمران
(٥) سورة يونس

(٧) قلنا ان الجهاد كان آية من آيات الدولة الاسلامية ، ومثالا من أمثلة الشؤون الملكية ، وإليك مثالا آخر ، :

كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم عمل كبير متعلق بالشؤون المالية ، من حيث الإيرادات والمصروفات ، ومن حيث جمع المال من جهاته العديدة ، « الزكاة والجزية والغنائم الخ » ومن حيث توزيع ذلك كله بين مصارفه ، وكان له صلى الله عليه وسلم سعاة وجباة ، يتولون ذلك له ، ولا شك أن تدير المال عمل ملكي ، بل هو أهم مقومات الحكومات ، على أنه خارج عن وظيفة الرسالة من حيث هي ، وبعيد عن عمل الرسل باعتبارهم رسلا فحسب

(٨) وقد يكون من أقوى الأمثلة في هذا الباب ما روى الطبري بإسناده ، ان النبي صلى الله عليه وسلم وجه إمارة اليمن وفرقها بين رجاله ، وأفرد كل رجل بحيزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمس وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء ابن باذام ، وعلى عك والاشعرين الطاهر بن أبي هالة ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري ، وعلى الجند يعلى بن أبي أمية ، وكان معاذ ماعلا يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضر موت^(١) الخ

هناك كثير غير ما ذكرنا قد وجد في العصر النبوي ، مما يمكن اعتباره أثراً من آثار الدولة ، ومظهراً من مظاهر الحكومة ، ومخايل السلطنة ، فمن نظر الى ذلك من هذه الجهة ، ساغ له القول بأن

النبي صلى الله عليه وسلم كان رسول الله تعالى ، وكان ملكا سياسيا أيضا .
(٩) اذا ترجيح عند بعض الناظرين اعتبار تلك الأمثلة ، واطمان
الى الحكم بأنه صلى الله عليه وسلم كان رسولا وملكاً ، فسوف يعترضه
حينئذ بحث آخر جدير بالتفكير . فهل كان تأسيسه صلى الله عليه وسلم
للمملكة الاسلامية ، وتصرفه في ذلك الجانب شيئاً خارجاً عن حدود
رسالته صلى الله عليه وسلم ، أم كان جزءاً مما بعثه الله له وأوحى به اليه ؟
فأما أن المملكة النبوية عمل منفصل عن دعوة الاسلام ، وخارج
عن حدود الرسالة ، فذلك رأي لا نعرف في مذاهب المسلمين ما يشا كله ،
ولا نذكر في كلامهم ما يدل عليه ، وهو على ذلك رأي صالح لان
يذهب اليه ، ولا نرى القول به يكون كفراً ولا الحاداً ، وربما كان
محمولاً على هذا المذهب ما يراه بعض الفرق الاسلامية من انكار الخلافة
في الاسلام مرة واحدة

ولا يهولئك أن تسمع ان للنبي صلى الله عليه وسلم عملاً كهذا خارجاً
عن وظيفة الرسالة ، وان ملكه الذي شيد به هو من قبيل ذلك العمل
الديني الذي لا علاقة له بالرسالة ، فذلك قول إن أنكرته الاذن ، لان
التشديق به غيره ألوف في لغة المسلمين ، فقواعد الاسلام ، ومعنى الرسالة ،
وروح التشريع ، وتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك لا يصادم
رأياً كهذا ولا يستفطه . بل ربما وجد ما يصلح له دعامة وسندا ،
ولكنه على كل حال رأي نراه بعيداً

(١٠) وأما ان المملكة النبوية جزء من عمل الرسالة متم لها ،
وداخل فيها ، فذلك هو الرأي الذي تتلقاه نفوس المسلمين فيما يظهر

بالرضا ، وهو الذى تشير اليه أساليبهم ، وتؤيده مبادئهم ومذاهبهم ، ومن البين أن ذلك رأى لا يمكن تعقله الا اذا ثبت أن من عمل الرسالة أن يقوم الرسول ، بعد تبليغ الدعوة الالهية بتنفيذها على وجه عملي ، أي أن الرسول يكون مبلغاً ومنفذاً معاً ،

(١١) غير أن الذين بحثوا في معنى الرسالة ، ووقفنا على مباحثهم ، أغفلوا دائماً أن يعتبروا التنفيذ جزءاً من حقيقة الرسالة ، الا ابن خلدون ، فقد جاء في كلامه ما يشير الى ان الاسلام دون غيره من الملل الاخرى قد اختص بأنه جمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالفعل ، وذلك المعنى ظاهر في عدة مواضع من مقدمته التاريخية ، وقد يذنب بنوع من البيان في الفصل الذى شرح فيه اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية ، واسم الكوهن عند اليهود ، فقال :

« إعلم أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي ، يحملهم على أحكامها وشرائعها ، ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكاليف . والنوع الانساني أيضاً ، بما تقدم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشرى ، لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم ، ويوزعهم عن مفاسدهم ، بالقهر ، وهو المسمى بالملك ، والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعاً ، لعموم الدعوة ، وحمل الكافة على دين الاسلام طوعاً أو كرهاً ، اتحدت فيها الخلافة والملك ، لتوجه الشوكة من القائمين بها اليهما معاً ، وأما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ، ولا الجهاد عندهم مشروعاً ، الا في المدافعة فقط ، فصار القائم بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك ، لأنهم

غير مكلفين بالتغلب على الأمم الأخرى . وانما هم مطلوبون باقامة دينهم في خاصة أنفسهم الخ »

فهو كما ترى يقول ، إن الاسلام شرعى تبليغى وتطبيقى ، وأن السلطة الدينية اجتمعت فيه والسلطة السياسية ، دون سائر الاديان .

(١٢) لا نرى لذلك القول دعامة ، ولا نجد له سنداً ، وهو على ذلك يناقش معنى الرسالة ، ولا يتلاءم مع ما تقضى به طبيعة الدعوة الدينية كما عرفت ، وليكن ذلك القول صحيحاً ، فقد بقى مشكل آخر عليهم أن يجدوا له جواباً ، وأن يلتمسوا منه مخرجاً ، ذلك هو المشكل الذى بدأنا عنده هذا المبحث فدفعنا الى بحث آخر .

اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسس دولة سياسية ، أو شرع في تأسيسها ، فلماذا خلت دولته اذن من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم ؟ ولماذا لم يعرف نظامه في تعيين القضاة والولاة ؟ ولماذا لم يتحدث الى رعيته في نظام الملك وفي قواعد الشورى ؟ ولماذا ترك العلماء في حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومى في زمنه ؟ ولماذا ولم يأتوا ! نريد أن نعرف منشأ ذلك الذى يبدو للناس كأنه إبهام أو اضطراب أو نقص ، أو ما شئت فسمه ، في بناء الحكومة أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف كان ذلك ؟ وما سره ؟

لعل أولئك الذين يصرون على اعتقادهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قام بدعوة الى دين جديد ، والى تأسيس دولة جديدة ، ويصرون

على أن الدولة التي أنشأها النبي صلى الله عليه وسلم كانت توضع أسسها، وتدار شؤونها، وتنظم أمورها، بوحي الله تعالى أحكم الحاكمين، ثم يضطرونهم ذلك إلى اعتقاد أن نظام الدولة زمن النبي صلى الله عليه وسلم، بلغ غاية الكمال التي تعجز عنها عقول البشر، وترتد دونها أفكارهم، لعل أولئك إذا سئلوا عن سر هذا الذي يبدو نقصا في أنظمة الحكم، وإيهاما في قواعده، قد يلتمسون للجواب إحدى تلك الخطط التي سنأخذ الآن في بيانها

(١٣) أما صاحب كتاب تخریج الدلائل السمعية - ويوافقه رفاعه بك - فقد وجد له من ذلك المأزق مخلصا سهلا، فزعم أن الحكومة كانت تشتمل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم على كل ما يلزم للدولة من عمال وأعمال، وأنظمة مضبوطة، وقواعد محدودة، وسنن، مفصلة تفصيلا، لا مجال بعده لجديد، ولا زيادة لمستزيد،

وعسى أن لا يكون بك حاجة إلى إعادة هذا القول عليك بعد ما سبق.

(١٤) قد يقول قائل يريد أن يؤيد ذلك المذهب بنوع من التأييد، على طريقة أخرى: إنه لا شيء يمنعنا من أن نعتقد أن نظام الدولة زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان متينا ومحكما، وكان مشتملا على جميع أوجه الكمال، التي تلزم لدولة يديرها رسول من الله، يؤيده الوحي، وتؤازره ملائكة الله، غير أننا لم نصل إلى علم التفاصيل الحقيقية، ودقائق ما كانت عليه الحكومة النبوية، من نظام بالغ، وإحكام سابع،

لأن الرواة قد تركوا نقل ذلك إلينا ، أو أنهم نقلوه ، ولكن غاب عنه
عنا ، أو لسبب آخر ، ^(١) « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

(١٥) تلك خطة لا ينبغي أن يرفضها لأول وهلة عقل العلماء .

خانه لا حرج على نفوسنا أن يخالطها الشك في أننا نجعل كثيراً من شؤون
التاريخ النبوي ، بل الواقع أننا نجعل منه ومن غيره أكثر مما نعرف

على أهل العلم أن يؤمنوا دائماً بأن كثيراً من الحقائق محجوب
عنها ، وعليهم أن يدأبوا أبداً في كشف مغيبها ، واستنباط الجديد منها ،
ففي ذلك حياة العلم ونماؤه ، غير أن احتمال جهلنا ببعض الحقائق
لا ينبغي أن يمنعنا من الوثوق بما علمنا منها ، واعتبارها حقائق علمية ،
تبنى عليها الأحكام ، ونقيم المذاهب ، ونبين لها الأسباب ، ونستخلص
منها النتائج ، حتى يظهر لنا ما يخالفها ويثبت ثبوتاً علمياً

لذلك نقول إنه من المحتمل حقيقة أن يكون نظام الحكومة النبوية
قد خفي علينا خبره ، وقد تكشف لنا الأيام أنه كان المثل الأعلى في الحكم ،
ولكن ذلك الاحتمال لا يمنعنا أن نعود — ولما ينكشف لنا بالفعل ما يخالف
معلومنا — فنسأل من جديد عن منشأ ذلك الذي عرفنا إلى الآن من
الإبهام والاضطراب في نظام الحكومة النبوية ، وعن سره ومعناه

(١٦) هنالك خطة أخرى للجواب عن ذلك السؤال

ذلك أن كثيراً مما نسميه اليوم أركان الحكومة ، وأنظمة الدولة ،
وأساس الحكم — إنما هي اصطلاحات عارضة ، وأوضاع مصنوعة ،

وليست هي في الواقع ضرورية لنظام دولة تريد أن تكون دولة البساطة ،
وحكومة الفطرة ، التي ترفض كل تكلف ، وكل ما لا حاجة بالفطرة
البسيطة اليه

وكل ما تمكن ملاحظته على الدولة النبوية يرجع عند التأمل إلى معنى
واحد ، ذلك هو خلوها من تلك المظاهر التي صارت اليوم عند علماء
السياسة من أركان الحكومة المدنية ، وهي في حقيقة الأمر غير واجبة ،
ولا يكون الاختلال بها حتماً نقضاً في الحكم ، ولا مظهراً من مظاهر
الفوضى والاختلال ، فذلك تأويل ما يلاحظ على الدولة النبوية مما قد
يعد اضطراباً

(١٧) كان محمد صلى الله عليه وسلم يحب البساطة ، ويكره التكلف .
وعلى البساطة الخالصة التي لا شائبة فيها قامت حياته الخاصة والعامة ،
كان يدعو إلى البساطة في القول والعمل ، كما في حديثه مع جرير بن
عبد الله البجلي ^(١) « يا جرير إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك
فلا تتكلف »

كان يعاشر الناس من غير تكلف ، ويمجري معهم على منهج البساطة ،
وقد روى ^(٢) أنه صلى الله عليه وسلم كان يمازح أصحابه ... وعن ابن عباس
رضي الله عنهما : كانت في النبي صلى الله عليه وسلم دعابة وكان يقول لأصحابه
« ^(٣) إني أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراد متميزاً بين

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤ المطبعة العلمية (٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٦٢

(٣) السيرة النبوية على هامش السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٦٠

أصحابه « وروى أنه صلى الله عليه وسلم ^(١) « ما خُيِّر بين أمرين إلا
اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا » وفي حديثه لأبي موسى الأشعري ومعاذ ،
وسبقت روايته « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا »

كان صلى الله عليه وسلم يكره الرياء والتكلف ، ويقول في حجة
الوداع ^(٢) « اللهم اجعله حجاً مبروراً ، لا رياء فيه ولا سمعة » وقال الله تعالى
مخاطباً له عليه السلام ^(٣) « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من
المتكافين » وكانت فيما يبلغ عن شريعة الله تعالى يأمر الناس بالتواضع
البسيطة ، وينهاهم عن التكلف ، ويناديهم « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه
ما استطعتم » و « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » ^(٤) و « ما جعل عليكم في
الدين من حرج »

ولا تجد فيما جاء به من الشرائع حكماً يرجع إلا إلى المبادئ
الأمية الساذجة . فلم يكلفهم في أوقات الصلاة أن يحسبوا درج الشمس ، ولا
معالج النجوم ، بل جعل مناط ذلك ما يحس به كل انسان من حركة
الشمس المشاهدة في السماء ، وجعل الصوم والحج ومناسك العبادة متصلة
بحركة القمر ، وحركة القمر محسوسة لا تحتاج الى حساب ولا رصد ، ولم
يكلفنا في الصوم أن نحسب لهلال رمضان ، بل جعل ذلك منوطاً برؤية الهلال
رؤية بسيطة لا تكلف فيها ، وجاء في ذلك الحديث ^(٥) « نحن أمة أمية الخ »
وحديث ^(٦) « صوموا لرؤيته الخ » ، ولم يكلفنا حساب اليوم بالساعات

(١) منه ص ٢٧٢ (٢) السيرة الخلبية ج ٣ ص ٢٨٤ (٣) سورة ص (٤) سور الحج

(٥) فتح الباري ج ٤ ص ٨٩ المطبعة الخيرية ، برواية انا ، بدل نحن (٦) شرح المسألة

للبخاري ج ٤ ص ٨٨ المطبعة الخيرية

والدقاق ، بل ربطه كذلك بالشئ المحسوس ، الذى لا خفاء فيه « وَكُلُوا »^(١)
وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ
ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ »

كان صلى الله عليه وسلم أمياً ورسولاً إلى الاميين ، فما كان يخرج
فى شئ من حياته الخاصة والعامة ولا فى شريعته عن أصول الأمية ، ولا
عن مقتضيات السذاجة والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ،
فأفعل ذلك الذى رأينا فى نظام الحكم أيام النبى صلى الله عليه وسلم هو
النظام الذى تقضى به البساطة الفطرية . ولا ريب فى أن كثيراً من نظم
الحكم فى الوقت الحاضر إنما هى أوضاع وتكلفات ، وزخارف طال
بنا عهدنا فألفناها ، حتى تخيلناها من أركان الحكم وأصول النظام ، وهى
إذا تأملت ليست من ذلك فى شئ ،

إن هذا الذى يبدو لنا إلهاماً أو اضطراباً أو نقصاً فى نظام الحكومة
النبوية لم يكن إلا البساطة بعينها ، والفطرة التى لا عيب فيها

(١٨) لو كنا نريد أن نختار لنا طريقاً من بين تلك الطرق التى قصصنا
عليك ، لكان ذلك رأى أدنى الى اختيارنا ، فانه بالدين أشبه . لكننا لا
نستطيع أن نتخذه لنا رأياً ، لأنك إن تأملت وجدته غير وجيه ولا صحيح
حق أن كثيراً من أنظمة الحكومات الحديثة أوضاع وتكلفات ،
وان فيها ما لا يدعو اليه طبع سليم ، ولا ترضاه فطرة صحيحة ، ولكن
من الأكيد الذى لا يقبل شكاً أيضاً أن فى كثير مما استحدث فى أنظمة
الحكم ما ليس متكلفاً ولا مصنوعاً ، ولا هو مما ينافى الذوق الفطرى

البسيط ، وهو مع ذلك ضرورى ونافع ، ولا ينبغي لحكومة ذات مدنية وعمران أن تهمل الأخذ به

وهل من سلامة الفطرة وبساطة الطبع مثلاً أن لا يكون لدولة من الدول ميزانية تقيد إيرادها ومصروفاتها ، أو أن لا يكون لها دواوين تضبط مختلف شؤونها الداخلية والخارجية ، إلى غير ذلك - وإنه لكثير - مما لم يوجد منه شئ في أيام النبوة ، ولا أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إنه ليكون تعسفاً غير مقبول أن يعلل ذلك الذى يبدو من نقص المظاهر الحكومية زمن النبي صلى الله عليه وسلم بأن منشأه سلامة الفطرة ، ومجانبة التكلف .

فتلتمس وجهاً آخر لحل ذلك الاشكال

الباب الثالث

رسالة لا حكم ، ودين لا دولة

كان صلعم رسولاً غير ملك - زعامته الرسالية وزعامته الملك - كمال
الرسول - كماله صلى الله عليه وسلم الخاص به - تحرير المراد بكلمات ملك
وحكومة الخ - القرآن ينفي أنه (صلعم) كماله ما كنا - السنة كذلك - طبيعة
الله ما لم تأتي ذلك أيضاً - تأويل بعض ما يشبه انه يكون مظهراً منه
مظاهر الرونة - خاتمة البحث

(١) رأيت إذن أن هنالك عقبات لا يسهل أن يتخطاها أولئك
الذين يريدون أن يذهب بهم الرأي إلى اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان يجمع إلى صفة الرسالة انه كان ملكاً سياسياً ، ومؤسساً لدولة سياسية .
رأيت انهم كلما حاولوا أن يقوموا من عثرة لقيتهم عثرات ، وكلما أرادوا
الخلاص من ذلك المشكل عاد ذلك المشكل عليهم جذعاً .

لم يبق أمامك بعد الذي سبق إلا مذهب واحد ، وعسى أن تجد
منهجاً واضحاً ، لا تخشى فيه عثرات ، ولا تلقى عقبات ، ولا تضل بك
شعابه ، ولا يغمرك ترابه ، مأمون الغوائل ، خالياً من المشاكل . ذلك
هو القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية
خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة ، وأنه لم يكن للنبي
صلى الله عليه وسلم ملك ولا حكومة ، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقم

بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتهما
ما كان الا رسولا كاخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا
مؤسس دولة ، ولا داعياً الى ملك .

قول غير معروف ، وربما استكرهه سمع المسلم ، بيد أن له حظاً
كبيراً من النظر وقوة الدليل .

(٢) وقبل أن نأخذ بك فى بيان ذلك ، يجب أن نحذرك من
خطأ قد يتعرض له الناظر اذا هو لم يحسن النظر ، ولم يكن من أمره
على حذر ، ذلك أن الرسالة لذاتها تستلزم للرسول نوعاً من الزعامة فى
قومه ، والسلطان عليهم ، ولكن ذلك ليس فى شىء من زعامة الملوك
وسلطانهم على رعيته . فلا تخلط بين زعامة الرسالة وزعامة الملك .
ولاحظ أن بينهما خلافاً يوشك أن يكون تبايناً
وقد رأيت أن زعامة موسى وعيسى فى اتباعهما لم تكن زعامة
ملوكية ، ولا كانت كذلك زعامة اكثر المرسلين

(٥) إن طبيعة الدعوة الدينية الصادقة تستلزم لصاحبها نوعاً من
الكمال الحسى أولاً ، فلا يكون فى تركيب جسمه ولا فى حواسه
ومشاعره نقص ، ولا شىء يدعو الى النفور . ولا بد له - لانه زعيم - من
هيبة تملأ النفوس من خشيته ، وجاذبية تمطف الرجال والنساء الى محبته .
ثم لا بد له أيضاً من الكمال الروحى ، لذلك ، ولما يفيض عليه ، ضرورة
اتصاله بالملأ الأعلى .

والرسالة تستلزم لصاحبها شيئاً كثيراً من التميز الاجتماعى بين

قومه ، كما ورد : ^(١) أنه لا يبعث الله نبياً الا في عز من قومه ، ومنعمة من عشيرته

والرسالة تستلزم لصاحبها نوعاً من القوة التي تُعده لأن يكون نافذ القول ، مجاب الدعوة ، فإن الله جل شأنه لا يتخذ الرسالة عبثاً ، ولا يبعث بالحق رسولا إلا وقد أراد لدعوته أن تتم ، وأن ترسخ أصولها في لوح العالم المحفوظ ، وأن تبرز بحقائق هذا العالم امتزاجاً ^(٢) « وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ » وحاش لله ، لا يرسل الله دعوة الحق لتخضع ، ولا يبعث رسولا من عنده ليرتد مخزياً ^(٣) « ولقد استهزئوا برسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ خَفَا بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » ، قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ^(٤) « وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » ^(٥) « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ^(٦) « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »

إن مقام الرسالة يقتضي لصاحبه سلطاناً أوسع مما يكون بين الخاك والمحكومين ، بل وأوسع مما يكون بين الاب وأبنائه

(١) رواه الشيخان بلفظ : كذلك الرسل تبعث في احساب قومها... من حديث طويل ، راجع تفسير الوصول الى الجامع الاصول ج ٣ ص ٣٢٠ (٢) سورة النساء (٣) سورة الانعام (٤) سورة الانفال (٥) سورة الصافات (٦) سورة المؤمن

قد يتناول الرسول من سياسة الأمة مثل ما يتناول الملوك ، ولكن للرسول وحده وظيفة لا شريك له فيها . من وظيفته أيضاً أن يتصل بالارواح التي في الأجساد ، وينزع الحجب ليطلع على القلوب التي في الصدور . له بل عليه أن يشق عن قلوب أتباعه ، ليصل الى مجامع الحب والضعيفة ، ومنايات الحسنة والسيئة . ومجاري الخواطر ، ومكامن الوسوس ، ومنايع النيات ، ومستودع الاخلاق . له عمل ظاهري في سياسة العامة ، وله أيضاً عمل خفي في تدبير الصلة التي تجمع بين الشريك والشريك ، والحليف والحليف ، والمولى وعبيده ، والوالد وولده ، وفي تدبير تلك الروابط التي لا يطلع عليها الا الحليل وحليلته . له رعاية الظاهر والباطن ، وتدبير أمور الجسم والروح ، وعلاقاتنا الارضية والسمائية . له سياسة الدنيا والآخرة .

الرسالة تقتضى لصاحبها ، وهي كما ترى ، وفوق ما ترى ، حق الاتصال بكل نفس اتصال رعاية وتدبير ، وحق التصريف لكل قلب تصرفاً غير محدود

(٤) ذلك ، ولاحظ أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اختصت رسالته بكثير مما لم يكن لغيره من المرسلين . فقد جاء صلى الله عليه وسلم بدعوة اختاره الله تعالى لان يدعو اليها الناس كلهم أجمعين ، وقدر له أن يبلغها كاملة ، وأن يقوم عليها حتى يكمل الدين ، وتتم النعمة ، وحتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . تلك الرسالة توجب لصاحبها من الكمال أقصى ما تسمو اليه الطبيعة البشرية ، ومن القوة النفسية

متمتهى ما قدر الله لرسله المصطفين الأخيار ، ومن تأييد الله ما يتناسب مع تلك الدعوة الكبيرة العامة

فذلك قوله تعالى «^(١) وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » وقوله تعالى «^(٢) فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » وفي الحديث «^(٣) والله لا يخزيك الله أبداً » «^(٤) أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا نخر »

من أجل ذلك كان سلطان النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى رسالته سلطاناً عاماً ، وأمره فى المسامين مطاعاً ، وحكمه شاملاً ، فلا شئ مما تمتد إليه يد الحكم الا وقد شمله سلطان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نوع مما يتصور من الرياسة والسلطان الا وهو داخل تحت ولاية النبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين

واذا كان العقل يجوز أن تتفاوت درجات السلطان الذى يكون للرسول على أمته ، فقد رأيت ان محمداً صلى الله عليه وسلم أحق الرسل عليهم السلام بأن يكون له على أمته أقصى ما يمكن من السلطان ونفوذ القول . قوة النبوة ، وسلطان الرسالة ، ونفوذ الدعوة الصادقة قدر الله تعالى أن تعلو على دعوة الباطل ، وأن تمكث فى الارض .

ذلك سلطان ترسله السماء من عند الله تعالى على من تنزل عليه ملائكة السماء بوحى الله تعالى . تلك قوة قدسية يختص بها عباد الله المرسلون ، ليست فى شئ من معنى الملوكية ، ولا تشابهها قوة الملوك ، بولا يدانيتها سلطان السلاطين .

(١) سورة النساء (٢) سورة الطور (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحي . أخرجه الشيخان ، (٤) من حديث لانس رواه الترمذى

تلك زعامة الدعوة الصادقة الى الله وابلاغ رسالته ، لازعامة الملك .

انها رسالة ودين ، وحكم النبوة لا حكم السلاطين .

ونعود ثانياً فنحذرك من أن تخط بين الحكّمين ، وأن يلتبس عليك أمر الولايتين ، ولاية الرسول من حيث هو رسول ، وولاية المملوك والامراء .

ولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، منشؤها ايمان القلب . وخضوعه خضوعاً صادقاً تاماً يتبعه خضوع الجسم ، وولاية الحاكم ولاية مادية ، تعتمد اخضاع الجسم من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال . تلك ولاية هداية الى الله وارشاد اليه ، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمارة الأرض . تلك الدين ، وهذه للدنيا . تلك لله ، وهذه للناس . تلك زعامة دينية ، وهذه زعامة سياسية ، ويا بُعد ما بين السياسة والدين .

(٥) نريد بعد ذلك أن نلفتك الى شيء آخر . فان ثمت كلمات تستعمل أحياناً استعمال المترادفات ، وتستعمل أحياناً استعمال المتغايرات ، وينشأ عن ذلك في بعض الأحوال مشاحة واختلاف في النظر ، واضطراب في الحكم . فمن ذلك كلمات ، ملك ، وسلطان ، وحاكم ، وأمير ، وخليفة ، ودولة ، ومملكة ، وحكومة ، وخلافة ، الخ .

ونحن هنا اذا سألنا هل كان النبي صلى الله عليه وسلم ملكاً أم لا ، فاننا نريد أن نسأل ، هل كان له صلى الله عليه وسلم صفة غير صفة الرسالة . بهايصح أن يقال انه أسس فعلاً ، أو شرع في تأسيس وحدة سياسية أم لا ؟ فالملك في استعمالنا هنا ، ولا حرج إن سميت خليفة أو سلطاناً أو اميراً ، أو ما شئت

فسمه . معناه الخا كم على أمة ذات وحدة سياسية ومدنية ، ونريد بالحكومة والدولة والسلطنة والمملكة ما يريد علماء السياسة بكلمات kingdom أو state أو government أو ما أشبه ذلك

نحن لا نشك في أن الاسلام وحدة دينية ، والمسلمين من حيث هم ، جماعة واحدة ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا الى تلك الوحدة ، وأتمها بالفعل قبل وفاته ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان على رأس هذه الوحدة الدينية ، إمامها الأوحـد ، ومديرها الفـذ ، وسيدها الذى لا يراجع له أمر ، ولا يخالف له قول . وفي سبيل هذه الوحدة الاسلامية ناضل عليه السلام بلسانه وسنانه ، وجاءه نصر الله وانفتح ، وأيدته ملائكة الله وقوته ، حتى بلغ رسالته ، وأدى أمانته . وكان له صلى الله عليه وسلم من السلطان على أمته ما لم يكن لملك قبله ولا بعده ^(١) « النبيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » ^(٢) « وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى اللهُ ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضللاً مبيناً »

من كان يريد أن يسمى تلك الوحدة الدينية دولة ، ويدعو سلطان النبي صلى الله عليه وسلم ذلك السلطان النبوى المطلق ، ملكاً أو خلافة ، والنبي عليه السلام ملكاً أو خليفة أو سلطاناً الخ فهو في حل من أن يفعل ، فان هى الأسماء ، لا ينبغى الوقوف عندها ، وانما المهم كما قلنا هو المعنى ، وقد حددناه لك تحديداً .

المهم هو أن نعرف هل كانت زعامة النبي صلى الله عليه وسلم في قومه زعامة رسالة ، أم زعامة ملك ؟ وهل كانت مظاهر الولاية التي نراها أحياناً في سيرة النبي عليه السلام مظاهر دولة سياسية ، أم مظاهر رياسة دينية ؟ وهل كانت تلك الوحدة التي قام على رأسها النبي عليه السلام وحدة حكومة ودولة ، أم وحدة دينية صرفة لا سياسية ؟ وأخيراً هل كان صلى الله عليه وسلم رسولاً فقط أم ملكاً ورسولاً ؟

« ٦ » ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له شأن في الملك السياسي ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان

«مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا» ^(١) «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ، لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ^(٢) «إِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» ^(٣) «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» ^(٤) «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» ^(٥) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا» ^(٦) «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» ^(٧)

(١) سورة النساء (٢) الانعام (٣) الانعام (٤) يونس (٥) سورة يونس (٦) سورة الاسراء (٧) سورة الفرقان

« إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » ^(١) « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » ^(٢) « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » ^(٣) « فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ » ^(٤)

القرآن كما ترى يمنع صريحاً أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، حفيظاً على الناس ، ولا وكيلاً ، ولا جباراً ^(٥) ولا مسيطراً ، وان يكون له حق اكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين : ومن لم يكن حفيظاً ولا مسيطراً فليس بملك ، لان من لوازم الملك السيطرة العامة والجبروت ، سلطاناً غير محدود .

ومن لم يكن وكيلاً على الامة فليس بملك أيضاً
وقال تعالى « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » ^(٦)
القرآن صريح في أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الحق على أمة غير حق الرسالة . ولو كان صلى الله عليه وسلم ملكاً لكان له

(١) سورة الزمر (٢) سورة الشورى (٣) سورة ق (٤) سورة الفاشية
(٥) يخيل الى اننى قرأت فى كتاب . لم استطع الآن ان اتذكره . ان الجبار اسم للملك عند بعض العرب . وعليه قوله تعالى (وما أنت عليهم بجبار) ولكن الذى وجدته فيما بين يدي من كتب اللغة ان الملك يسمى جباراً . وقالوا طلع الجبار . وهو الجوزاء . لانها على صورة ملك متوج على كرسى . وقالوا هو كذا ذراعاً بذراع الجبار . أى بذراع الملك . والله أعلم .
(٦) سورة الاحزاب

على أمته حق الملك أيضاً . وأن للملك حقاً غير حق الرسالة ، وفضلاً غير فضلها ، وأثراً غير أثرها « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ^(١) « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ . إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » ^(٢) « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » ^(٣) « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » ^(٤) « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » ^(٥) « إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » ^(٦) « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ » ^(٧)

القرآن كما رأيت صريح في أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لم يكن إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، ثم هو بعد ذلك صريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس ، وأنه لم يكلف شيئاً غير ذلك البلاغ ، وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به ، ولا أن يحملهم عليه « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولِنَا

(١) سورة الاعراف (٢) سورة هود (٣) سورة الرعد (٤) سورة الكهف

(٥) سورة الحج (٦) سورة ص (٧) سورة حم السجدة — أو فصلت

الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» ^(١) «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ» ^(٢) «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ، إِنْ هُوَ
إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» ^(٣) «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ
أُنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» ^(٤)
«وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» ^(٥) «فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» ^(٦) «وَمَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» ^(٧) «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» ^(٨) «وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» ^(٩) «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» ^(١٠) «طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى» ^(١١) «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ» ^(١٢) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» ^(١٣) «إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ
أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ،
وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ» ^(١٤) «وَإِنْ يُكَذِّبُوا فَقَدْ

(١) سورة المائدة (٢) المائدة (٣) سورة الاعراف (٤) سورة يونس (٥) سورة الرعد
(٦) سورة النحل (٧) النحل (٨) النحل (٩) سورة الاسراء (١٠) سورة مريم
(١١) سورة طه (١٢) سورة النور (١٣) سورة الفرقان (١٤) سورة النمل

كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(١) «
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا^(٢)» « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٣) » « مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ^(٤) » « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ^(٥) »
« وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(٦) » « قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٧) » « قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاءٍ مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أُدْرِي مَا
يَفْعَلُنِي وَلَا بِكُمْ أَنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ^(٨) »
« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا^(٩) » « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(١٠) » « قُلْ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ^(١١) » « قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا
أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ
يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ
وَرِسَالَاتِهِ^(١٢) »

(١) سورة النكبات (٢) سورة الاحزاب (٣) سورة سبأ (٤) سورة سبأ
(٥) سورة فاطر (٦) سورة يس (٧) سورة ص (٨) سورة الاحقاف
(٩) سورة الفتح (١٠) سورة المائدة (١١) سورة الملك (١٢) سورة الجن

(٧) اذا نحن تجاوزنا كتاب الله تعالى الى سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، وجدنا الأمر فيها أصرح ، والحجة أقطع
روى صاحب السيرة^(١) النبوية أن رجلاً جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، لحاجة يذكرها ، فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : هون عليك فاني لست بملك ولا جبار ، وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة . . . وقد جاء في الحديث أنه لما خير على لسان اسرافيل بين أن يكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ، نظر عليه الصلاة والسلام الى جبريل ، عليه السلام ، كالمستشير له ، فنظر جبريل الى الارض ، يشير الى التواضع ، وفي رواية فأشار إليه جبريل أن تواضع ، فقلت نبياً عبداً . اهـ
فذلك صريح أيضاً في أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ملكاً ، ولم يطلب الملك ، ولا توجهت نفسه عليه السلام اليه

التمس بين دفتي المصحف الكريم أثراً ظاهراً أو خفياً لما يريدون أن يعتقدوا من صفة سياسية للدين الاسلامي ، ثم التمس ذلك الاثر مبلغ جهلك بين أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . تلك منابع الدين الصافية متناول يديك ، وعلى كשב منك ، فالتمس منها دليلاً أو شبه دليل ، فانك لن تجد عليها برهاناً ، الا ظناً ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً
(٨) الاسلام دعوة دينية الى الله تعالى ، ومذهب من مذاهب الإصلاح لهذا النوع البشري وهدايته الى ما يدينه من الله جل شأنه ، ويفتح له سبيل السعادة الأبدية التي أعدها الله لعباده الصالحين .

(١) السيرة النبوية لأحمد بن زيني دحلان التوفي سنة ١٣٠٤ هـ من كتاب اكتفاء القنوع

هو وحدة دينية أراد الله جل شأنه أن يربط بها البشر أجمعين ، وأن يحيط بها أقطار الأرض كلها .

تلك دعوة قدسية طاهرة لهذا العالم ، أحمره وأسوده ، أن يعتصموا بحبل الله الواحد ، وأن يكونوا أمة واحدة ، يعبدون الهاً واحداً ، ويكونون في عبادته اخواناً . تلك دعوة الى المثل الأعلى لسلام هذا العالم ، وأخذه الى ما يليق به من الكمال ، وإلى ما أعد له من السعادة ، تلك رحمة السماء بالأرض ، وفضل الله على العالمين .

دعوة العالم كله الى التآخي في الدين دعوة معقولة ، وفي طبيعة البشر استعداد لتحقيقها .

بلى . ولقد وعد الله جل شأنه لهذه الدعوة أن تتم ، فلا تخسبن الله تخلف وعده^(١) ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون^(٢) « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً »^(٣) « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ، والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل

رَسُولُهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ» ^(١)

معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد، وأن تنتظم البشرية كلها
وحدةً دينيةً ، فاما أخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة
سياسية مشتركة ، فذلك مما يوشك أن يكون خارجاً عن الطبيعة البشرية ،
ولا تتعلق به ارادة الله

على ان ذلك انما هو غرض من الأغراض الدنيوية ، التي خلق الله
سبحانه وتعالى بينها وبين عقولنا . وترك الناس أحراراً في تدبيرها على
ما تهديهم اليه عقولهم ، وعلومهم ، ومصالحهم ، واهوائهم ، ونزعاتهم .
حكمة الله في ذلك بالغة ليبقى الناس مختلفين ، « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ
أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » ^(٢)
وليبقى بين الناس ذلك التدافع الذي أراده الله ليتم العمران « وَلَوْ لَا
دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَآسَكِنَّ اللَّهُ ذُفُوفًا
عَلَى الْعَالَمِينَ » ^(٣)

وحتى يبلغ الكتاب أجله ، ويتم أمر الله

ذلك من الأغراض الدنيوية التي أنكر النبي صلى الله عليه وسلم
أن يكون له فيها حكم أو تدبير ، فقال عليه السلام أنتم أعلم
بشؤون دنياكم

ذلك من أغراض الدنيا ، والدنيا من أولها لا آخرها ، وجميع ما فيها

من اغراض وغايات ، أهون عند الله تعالى من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، وحبانا من عواطف وشهوات ، وعلمنا من أسماء ومسميات ، هي أهون عند الله تعالى من أن يبعث لها رسولا ، وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها .

(٩) لا يرينك هذا الذي ترى أحيانا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فيبدو لك كأنه عمل حكومي ، ومظهر الملك والدولة ، فانك اذا تأملت لم تجده كذلك ، بل هو لم يكن الا وسيلة من الوسائل التي كان عليه صلى الله عليه وسلم أن يلجأ اليها ، تثبيتا للدين ، وتأيدا للدعوة وليس عجيبا أن يكون الجهاد وسيلة من تلك الوسائل . هو وسيلة عنيفة وقاسية ، ولكن ما يدريك ، فلعل الشر ضروري للخير في بعض الاحيان ، وربما وجب التخريب ليتم العمران .

« قالوا كان لا يخلو من غلب » بالتجريك « ، قلنا تلك سنة الله في الخلق ، لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغبي ، قائمة في هذا العالم الى أن يقضي الله بقضائه فيه

اذا ساق الله ربيعا الى أرض جذبة ، ليحيي ميتها ، وينقع من غلتها وينمي الخصب فيها ، أفينقص من قدره ان أنى في طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهو به »^(١)

قالوا غزوت ! ورسل الله ما بعثت لقتل نفس ولا جاءت لسفك دم جهل وتضليل أحلام وسفسفة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كل ذى حسب تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم
علمهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم^(١)

(١٠) ترى من هذا انه ليس القرآن هو وحده الذى يمنعنا من
اعتقاد ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو مع رسالته الدينيه الى دولة
سياسية . وليست السنة هي وحدها التى تمنعنا من ذلك ، ولكن مع
الكتاب والسنة حكم العقل وما يقضي به معنى الرسالة وطبيعتها
انما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ولاية الرسالة
غير مشوبة بشيء من الحكم .

هيئات هيئات ، لم يكن تمت حكومة ، ولا دولة ، ولا شيء من
زعات السياسة ، ولا اغراض الملوك والامراء

لعلك الآن قد اهتمت الى ما كنت تسأل عنه قبلا ، من خلو
العصر النبوى من مظاهر الحكم واغراض الدولة ، وعرفت كيف لم يكن
هنالك ترتيب حكومي ، ولم يكن تمت ولاية ولا قضاة ولا ديوان الخ .
ولعل ظلام تلك الحيرة التى صادفتك قد استحال نوراً . وصارت النار
عليك برداً وسلاماً